خطط الكوفة في كتب الرحالة الاجانب

المدرس الدكتور
علي هادي عباس
جامعة بابل / كلية التربية

خطط الكوفة في كتب الرحالة الاجانب

المدرس الدكتور
علي هادي عباس
جامعة بابل / كلية التربية

المقدمة:

حرص كثير من الرحالة الذين جاءوا الى العراق في فترة العصر الحديث على زيارة المناطق والحواضر المهمة فيه، وتعدْ الكتب التي وصلتنا عنهم على جانب كبير من الأهمية في الدراسات التاريخية الحديثة وبخاصة تلك التي تتناول دراسة تواريخ المدن في العهد العثماني، وبهذا تكون ساهمت في توثيق بعض المعلومات التي قد لاتشير إليها المصادر المحلية، فهي تضم بين دفتيها مادة ثرية تتعلق بملاحظات وأنطباعات دونها أولئك الرحالة كشاهد عيان في ذلك العهد.

وقد حضيت مدينة الكوفة بنصيب لابأس به من زيارات الرحالة الأجانب. كونها تتميز بمكانة تاريخية وحضارية معروفة، فخصصوا لها في كتبهم صفحات ضمنوها معلومات مهمة في مختلف الجوانب وذلك من خلال تجاربهم ومشاهداتهم المباشرة أو غير المباشرة أحياناً.

إن أقدم الرحلات التي عثرنا عليها تعود الى عام ١٣٤٠، وهي الرحلة المسماة بـ(نزهة القلوب) للرحالة المعروف حمد الله المستوفي، وجاء بعده آخرين في الفترات اللاحقة، وتجدر الإشارة هنا بأن لكل رحالة دوافعه الخاصة من الزيارة، فبعضهم كان مدفوعاً بحب السفر وأكتشاف المجهول، والبعض الآخر قصدها من أجل الحصول على القطع الأثرية النفيسة والمتاجرة بالآثار بيد أن المسلمين منهم كان هدفهم تأدية مراسيم الزيارة للأماكن والعتبات المقدسة. وسنتناول في هذا البحث تسليط الضوء على مذكرات الرحالة الأجانب بشأن خطط الكوفة في العصر الحديث من خلال الرحلات التي أمكن العثور عليه.

وصف المدينة:

أشار المستوفي في رحلته الى ماضي الكوفة العريق والى أهميتها العسكرية فذكر أنها قد تبوأت مكانة حضارية مرموقة في مختلف الفترات وبخاصة حينما قرر الخليفة عمر(رض) تحرير العراق من السيطرة الأجنبية ونشر الدين الإسلامي، فأرسل إليها القائد العربي سعد بن أبي وقاص على رأس جيش كبير حيث تمكن من

طرد الفرس وترسيخ دعائم الإسلام في العراق[١]، وكتب قائلاً ((تقع الكوفة على خط العرضَ ٣١ ْ وخط الطول ٣٢ َ٧٩ ْ، وهي في منطقة أكثر حرارة من بغداد، فالرياح الشمالية هي السائدة على الأغلب، وتصل المياه الى الكوفة عن طريق قناة تتفرع من الفرات الذي يمر قريباً منها، ومن المدهش حقاً، كثافة بساتين النخيل ووسعها، حيث تتوزع في مساحات كبيرة، غير أنه الملفت للنظر هو وجود القصب وبكثافة في هذه المنطقة فيستخدم لأغراض شتى ومنها استعماله كأقلام للكتابة)) [٢].

كما أشار المستوفي أثناء تجواله بالمدينة الى ((وجود ينبوع للماء بالقرب من مسجد الكوفة –في جهته الشمالية الغربية– كان يرتاده الزوار لاخذ المياه منه)) وأضاف ((تضم الكوفة عدد من الأحياء السكنية، بيوتها صغيرة وبسيطة، غير أن معظم معالمها القديمة قد تهدمت او خربت، لذلك فهي تبدو مهملة في الوقت الحاضر، وسكانها ناس بسطاء، وبعضهم يعمل بالزراعة، أو مزاولة التجارة في السوق، وعلى عموم فأغلبهم من المزارعين الذين يعملون في مساحات واسعة من الراضي والمقاطعات الزراعية)) [٣].

وذكر الرحالة الفرنسي أوليفيه في رحلته ١٧٩٤ -١٧٩٦ ((على بعد تسعة فراسخ جنوب الحلة كانت تقوم سابقاً مدينة عربية تسمى الكوفة، لم يبق منها سوى بعض الأطلال، لقد كانت واقعة على قناة مستمدة من الفرات في ارض خصبة ومزدهرة، هذه القناة هي اليوم بدون ماء ويسميها البدو (كري سعدة) Djarri- saada والتي قال عنها أحد مؤرخي اليونان بانها تتصل بهور كبير حتى الفرات وذلك على الضفة اليمنى جنوب بابل))، وتحدث أوليفية عن ماضي الكوفة العريق وأضاف ((لا ندري في أي حقبة خربت الكوفة ومن المحتمل أن ذلك لم يحدث إلا بعد أستيلاء التتار على بغداد)) [٤].

أما الرحالة الأنكليزي بورتر الذي وصل العراق عام ١٨١٦، فقد قارن بين أحوال الكوفة في القرون السابقة، والحالة المزرية التي كانت تعيشها المدينة في وقت زيارته لها في الربع الأول من القرن التاسع عشر، فقد إطلع على مصادر أكدت بأن ((لمدينة الكوفة شأن كبير من بين الحواضر الإسلامية))، لكنه وجدها ((مدينة صغيرة، شوارعها وأسواقها ضيقة، أما بيوتها فهي قديمة وغير منتظمة البناء، ومنظرها لايسر المرء)) [٥].

ووصف الراهب الإيطالي سبستياني (Sebastiani) الكوفة بأنها غير جميلة على الطلاق، إذ لم يعجبه أي شيء فيها، وربما كان موقفه هذا بسبب الحادثة المحرجة التي صادفته أثناء مكوثه في المدينة والتي تتلخص ان بعض الأشخاص قد اتهموا مرافقه بسرقة بقرة كانت تعود لاحدهم مما قاد الى شجار بين الطرفين، عندها قرر سبستياني مغادرة الكوفة ناعتا سكانها بصورة غير حميدة [٦].

واورد الدنماركي نيبور في رحلته عام ١٧٦٥ ((أن الكوفة من المدن العربية المشهورة في التاريخ، حيث إختير موقعها في منطقة خصبة سهلية)) وقال أيضاً أن

من معالمها الشاخصة هو مجرى (كرى سعدة) حيث يعتقد أن المياه كانت تجري فيه في القنوات السابقة ((لكنه الآن خال من الماء)). كما أعجب بالمزارع الخضراء التي تمتد في مساحات كبيرة حول الكوفة مما أضفى عليها منظراً جميلاً.[٧]

وأثناء تجواله في منطقة الفرات الأوسط قرر المنشي البغدادي التوجه الى مدينتي النجف والكوفة لتأدية مراسيم الزيارة للعتبات المقدسة فيهما وذلك عام ١٨٢٢، فوصف المدينة الأخيرة بقوله ((إنها بلدة كبيرة ليس فيها من العمارة غير مسجد الكوفة، وباقيها خراب، يمر نهر الهندية قريباً منها ثم يمضي الى أرضٍ عالية، ومن هناك حفرت قناة فصار الماء في تلك القناة يجري منها الى مسافة حتى يظهر الى الخارج، والماء الذي يخرج من القناة له فرع)).[٨]

وفي الثلاثينات من القرن التاسع ذكر الرحالة الفرنسي آلوي (Eloy)، إن رحلته الى الكوفة كانت ذات متعة وفائدة، حيث أستمتع بالمناظر الخضراء الجميلة التي تزين المدينة وماحولها، وكتب قائلاً ((الكوفة من المدن الجميلة التي صادفتني في الرحلة، فيها عدد من الأسواق -وإن كانت غير منتظمة- لكنها ممتلئة بمختلف أنواع البضائع، بيوتها حسنة وتحيط بها الحدائق، ولكن مما يميز المدينة هو مسجدها الكبير)).[٩]

ودهش الرحالة الأنكليزي وليم بيوز بالمناظر الجميلة التي أخفاها وجود الصفصاف الكثيف على ضفتي الفرات في الكوفة، وقارنها بما رآه على نهر دجلة في بغداد، فتجول في المدينة وأطرافها وكتب قائلاً: ((بعد عبورنا جسر من القوارب كان يربط ضفتي النهر صادفنا سوق كبير متعرج، عُرضت فيه البضائع وسلع متنوعة، ثم سرنا بأتجاه آخر فوجدنا سوقاً آخر يعرف بـ سوق البزازين، يباع فيه القماش)) وأضاف أيضاً، ((خلال تجوالنا في الكوفة وأسواقها، وجدنا عدد لابأس به من الحوانيت تقدم خدمتها للناس، بينما أفترش بعض الباعة الأرض))، وأختتم بيوز مشاهداته بالقول ((أن الطريقة التي شُيدت بها بيوت الكوفة في نهاية من البساطة، وبعضها مُشيد بالطابوق، ولكن على العموم فأن منظر المدينة غير مسر مقارنة بمناطق أخرى قامت على نهر الفرات كنا قد مررنا بها أثناء جولتنا هذه))[١٠]

وفي عام ١٨٤٩ زارها رحالة إنكليزي آخر يدعى لوفتز، فذكر، ((بالرغم من موقع الكوفة على الفرات، ولكن درجات الحرارة فيها مرتفعة جداً مما يضطر المسافر أو الزائر البحث عن مكان للأحتماء به من أشعة الشمس المحرقة، والمتمثل بالخان، حيث يوجد هنا عدد من الخانات التي تقدم خدمات متنوعة لساكنيها أو الزائرين مقابل بعض الإجور، وخرجنا للتجوال والتنزه في الأوقات التي يكون فيها الجو لطيفاً للأطلاع على معالم الكوفة وأسواقها، فتجولنا في عدد من الأسواق، وشاهدنا بيوت المدينة التي كانت تبدو غير جميلة وغير منتظمة من خلال أزقة ضيقة، إذ لم يبقى من المدينة القديمة إلا آثاراً من الطين وسوراً مهملاً)).[١١]

ويرى الفرنسي جون اوشر بأن الكوفة -تلك المدينة التي تبوأت مكانتها المشهورة في التاريخ- لم يبق منها وقت زيارته عام ١٨٦٤ ((سوى أكوام غير مهمة من الخرائب والأنقاض التي تنتشر هنا وهناك)) وأضاف، ((أما بيوتها الحالية فمنها ماهو مشيد بالطابوق، والآخر قد بني من حزم طويلة من القصب)).[١٢]

وقام الرحالة الهولندي نجهولت في عام ١٨٦٧ بزيارة الى الكوفة، لعله يجد غايته بالحصول على بعض الآثار النفيسة، فمكث فيها بضعة أيام تجول خلالها في المدينة وأطلع على معالمها وكتب قائلاً: ((شُيدت الكوفة في سنة ٦٣٧ هـ، وهي على بعد ٦ فراسخ من الفرات و ٣٥ فرسخاً من بغداد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب(رض)، ولم تلبث الكوفة التي أحكمت الطريق إحكاماً أن أصبحت ذات شأن عظيم، ولكن لم يبق من هذه العاصمة الإسلامية سوى قرية ساذجة تقوم حول مسجد قديم))، ثم أضاف ((نزلنا شريعة الكوفة التي كانت ترسو فيها الزوارق، فشاهدنا أكواماً من الطين كانت منتشرة بالقرب منها)) [١٣]، ولكن هذا الرحالة لايذكر تفاصيل عن جولته في أحياء وشوارع وأسواق الكوفة.

وقارن الرحالة كوبر في عام ١٨٨٩ الحالة التي وجد بها الكوفة، بما عرف عنها من ماضي عريق، فذكر ((إنها عُرفت كمدينة مزدهرة بأسواقها وبيوتها وبناياتها الأخرى، أما الآن فتبدو مدينة صغيرة لم يتبقى من الماضي الذي عُرفت به سوى آثار بعضها قد إندثر))[١٤].

وفي أواخر القرن التاسع عشر ذكر السير واليس بدج في رحلته المشهورة، أن الكوفة شأن المدن العثمانية الأخرى التي كانت تعاني من الإهمال فوصفها بقوله ((كانت حال البلده تعسة وبيوتها خربة متداعية)) [١٥].

أما الرحالة الإنكليزي Geere الذي زار الكوفة عام ١٨٩٥، فقد كان ممتناً للحفاوة التي قوبل بها من قبل السكان، حيث لقي تعاملاً جيداً من جميع الذين صادفهم في هذه المدينة[١٦].

فوصف مشاهداته بالقول ((كانت محطتنا الأولى في إحدى المقاهي، حيث استقبلنا صاحبها بترحاب وسرور، وقدم لنا شاياً وقهوة، تجولنا بعد ذلك في الأسواق التي كانت تبدو صغيرة وغير نظامية، وعرجنا على سوق البزازين وأطلعنا على البضاعة الموجودة فيه، وتوقفنا قليلاً في سوق العطارين حيث شاهدنا مواد مختلفة، ومنها ماهو مغلف ونظيف، ثم أضطررنا للخروج من السوق تجنباً للازدحام)) [١٧].

وأختتم Geere ملاحظاته بقوله ((إن منظر المدينة على العموم غير مُسر، فالمدينة القديمة تحيطها أكوام من الأوساخ، ولم يبق من آثارها إلا بقايا بسيطة، ذلك أن موادها نُقلت الى النجف حيث يتم أعادة بناءها مرة ثانية)) [١٨].

مسجد الكوفة:

أشارت إحدى الدراسات بأنه ((مادُكرت الكوفة إلا وقرن ذكرها أسم جامعها العظيم، وزادت شرفها بفضله ورقت علياء بقربه وذلك هو جامعها الكبير)).[١٩]

فمن هذا يتضح أنه ليس مستغرباً على الباحث وهو يتصفح كتب الرحالة الأجانب، بذكرها هذا المسجد كأحد أبرز المعالم في الكوفة. فقال عنه المستوفي ((هو أبرز المساجد الكبرى التي شيدها المسلمون، وفق تصميم رائع وجميل، وقد أحاطوه بسور عالٍ)).[٢٠]

ويعد نيبور من الرحالة القلائل الذين وثقوا مذكراتهم برسوم وخرائط ومخططات توضيحية -الى درجة ما من الدقة- للمناطق التي قصدها في رحلته، فقد رسم مخططاً لمدينة الكوفة، أشار فيه بالرقم **(١)** الى أحد أبواب المسجد الذي كان يعرف بـ(باب عقيل) - ملحق رقم **(١)** -.

وذكر أن مسجد الكوفة الكبير يسترعي أنتباه الزائر حال وصوله الى المدينة لبنائه الشامخ المتميز، وهو يحتل مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، حيث المكان الذي جُرح وأستشهد فيه الإمام علي بن أبي طالب (ع). وتطرق أيضاً، انه لم يبقى من المسجد القديم (البناء الأصلي) سوى النزر اليسير بأستثناء جدرانه الأربعة، ومن وجهة نظره فأن عموداً يقع في باحة المسجد قد لفت نظره، فدفعه فضوله بالتقصي عنه ن فروي له أن الإمام علي (ع) كان قد حمله معه من البصرة، دون ذكر المزيد من التفاصيل.[٢١] ولم نعثر في كتبهم عن تفاصيل عمارة هذا المرقد.

مرقد هاني بن عروة:

أشار كل من بيوز ونيبور بأن هاني بن عروة هو أحد الذين أستشهدوا دفاعاً عن اللإسلام في الكوفة[٢٢]، لهذا يقصده المسلمون لإداء مراسيم الزيارة[٢٣]، وترجم له ماسينور بقوله ((هو هاني بن الفضفاض بن عمران الغطيفي الراوي (أحد سادات الكوفة وأشرافها).[٢٤]

بيت الإمام علي (ع):

وهو من معالم الكوفة الشهيرة، لارتباطها بذكرى الإمام علي (ع)[٢٥]، وذكر المستوفي ((أن الناس قد أعتادوا على لمس جدرانه تباركاً بقدسية المكان))[٢٦]، في حين أشار إليه ماسنيون بقوله ((أن هذا البيت هو دار أم هاني أخت الأمام(ع) وقد نزله عندما جاء الى الكوفة))[٢٧].

مقامات الأنبياء:

وردت الإشارة في رحلة نيبور، حيث عينها في مخطط بالأرقام ٥، ٦، ٧ وهي مقام سيدنا عيسى(ع) ومقام سيدنا موسى(ع) ومقام إبراهيم الخليل(ع)[٢٨]،كما ذكرها ميكنان ولوفتز فأشارا بأنه تلك المقامات كانت تحضى بأهتمام المسلمين لأعتقادهم أن هؤلاء الأنبياء قد وطأوا هذه الأمكنة، لذلك فهي من البقاع المباركة.[٢٩]

السقخانه:

وهو مكان مخصص لتوزيع الماء مجاناً على زوار المدينة وبخاصة في مواسم الزيارات[٣٠]، وقد شاهد بورتر الناس وهم يتزودون بالماء منه دون أجرٍ أو أعطاء مادي[٣١] وورد ذكرها في مخطط نيبور بالرقم **(٣)** والتي قال عنها ((إنها بناية صغيرة دائرية الشكل))[٣٢].

كري سعده:

جاء في رحلة ألوي بأن كري سعده، هو عبارة عن شق أو خندق حُفر من أجل تأمين الدفاع عن المدينة ضد الهجمات الخارجية التي قد تتعرض لها من جهة الصحراء[٣٣]، وأشار ميكنان أنه ذهب لمشاهدة هذا الخندق، فوجد أجزاءً منه وقد غمرتها الرمال[٣٤]، أما ماسنيون فأورد في كتابه ((أنه حد فاصل بين الكوفة والنجف ويزيد عمقه في بعض الأماكن على خمسة أقدام وعلى جهتيه كتفان ترابيان يمثلان خطاً تلياً متوالياً))[٣٥]، في حين ذكره كوبر في رحلته أنه يعرف أيضاً بـ((خندق سابور))[٣٦]، والذي يبدأ من جنوب مدينة هيت ويخترق البادية على طول الحدود الغربية لأراضي العراق السهلية وينتهي في البحر العربي قرب روبيان على بعد عشرين ميلاً عن شط العرب.[٣٧]

مما تقدم يتضح أن مدينة الكوفة من المدن العربية الإسلامية التي تبوأت مكانة حضارية وتاريخية معروفة، ناهيك عن مكانتها الدينية حيث وطىء أرضها رجال ينتمون الى سلالة الرسول الكريم(ص). لذلك فلا عجب أن يتناول الرحالة الذين زاروا العراق ذكر هذه المدينة والإشادة بماضيها العريق. فمن خلال مذكراتهم تم توثيق بعض الجوانب عن خططها في فترة العصر الحديث، وهي في الواقع تمثل ما أمكن العثور عليها مستقبلاً مما يسهم في الكشف عن جوانب أخرى تتعلق بخطط الكوفة في التاريخ الحديث.

هوامش البحث:

(١) **- Mustawfi , Hamd - Alah:Nuzhat - Al- Qulub , (London 1917), p. 35.**

(٢) **- Ibid , p. 36.**

(٣) - lbid , p. 36 – 37.
(٤) أوليفيه: رحلة أوليفيه، ص ٨٣.
(٥) - Porter, sir Robert ker: Travels in Georgia, Persia, Armenia Ancient Babylonia, (London 1822) p.338.
(٦) سبستياني: رحلات سبستياني ، ص ١٨٨.
(٧) نيبور: مشاهدات نيبور ، ص ٨٣.
(٨) المنشىء البغدادي: رحلة المنشىء البغدادي، ص ٩٣.
(٩) - Eloy, A.: Relation de voyages en orient, v.2, (Paris, 1843), p.264.
(١٠) - Beawes , William: The Desert Roat to lndia, v.1, London, 1924), p. 325-26.
(١١) - Loftus , William Kennett: Travels and reserchas in chaldaed and Susina, (London, 1857), p 165.
(١٢) أوشر: مشاهدات جون أوشر ، ص ١١٢.
(١٣) نجهولت: صفحات من مذكرات الرحالة الهولندي نجهولت ، جريدة البلد ، ٩١٦ ، ٩، حزيران ١٩٦٧.
(١٤) - Cowper, H., Swaine: Through Turkish Arabia, (London ,1824), p281.
(١٥) بدج: رحلات بدج الى العراق ، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(١٦) - Geere , H. valentine: By Nile and Euphrate , (London , 1904) , p249.
(١٧) - lbid , p. 241.
(١٨) - lbid , p. 242.
(١٩) الجبوري: مساجد الكوفة، ص ٨٣.
(٢٠) - Mustawfi , Op. cit , p. 37
(٢١) نيبور: المصدر السابق ، ص٨٣.
(٢٢) - Beawes , Op. cit , p. 326.
(٢٣) نجهولت: مذكرات نجهولت (نفس العدد السابق).
(٢٤) ماسنيون: خطط الكوفة ، ص٢٢.
(٢٥) - Beawes, op. cit, p. 326.
(٢٦) نيبور: المصدر السابق ، ص٨٤.
(٢٧) ماسنيون: المصدر السابق ، ص ١٨.
(٢٨) نيبور: المصدر السابق ن ص ٨٣.
(٢٩) - Mignan ,op. cit, p. 139 , Loftus, op. cit , p. 166.
(٣٠) - Mustowfi , op. cit , p. 38.
(٣١) - Porfer. op. cit , p. 338 - 339.
(٣٢) نيبور: المصدر السابق، ص ٨٣.
(٣٣) - Eloy ,op.cit ,p. 267.
(٣٤) - Mignan , op.cit , p. 140.
(٣٥) ماسنيون ك المصدر السابق، ص ٢٣.
(٣٦) - cowper , op. cit, p. 283.
(٣٧) ماسنيون: المصدر السابق، ص ٢٣.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب والرحلات المترجمة:

- أوليفيه: رحلة أوليفيه الى العراق ١٧٩٤-١٧٩٦، ترجمة د. يوسف صبي. مطبعة المجمع العلمي، بغداد، ١٩٨٨.

- بدج السيروااليس: رحلات الى العراق، ترجمة فؤاد جميل، جـ١، دار الزمان، بغداد، ١٩٦٦.
- الجبوري، كامل سلمان: مساجد الكوفة. مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٧.
- ماسنيون، لويس: خطط الكوفة، ترجمة تقي محمد المصعبي. مطبعة الغري، النجف، ١٩٧٩.
- محمد خان، أبو طالب: رحلة أبي طالب خان، ترجمة د. مصطفى جواد. مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٦٩.
- المنشىء البغدادي: رحلة المنشىء البغدادي، ترجمة عباس العزاوي، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، ١٩٤٨.
- نيبور، كارستبن: مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥، ترجمة سعاد هادي العمري. دار المعرفة، بغداد ، ١٩٥٥.

الدوريات:

- أوشر، جون: مشاهدات جون أوشر في العراق، ترجمة جعفر الخياط، مجلة سومر، مجلد ٢١، ١٩٦٥.
- سبستيان: رحلات سبستياني في القرن السابع عشر، ترجمة د. يوسف صبي، مجلة المورد، مجلد ٩، العدد٣ (١٩٨٠).

كتب الرحلات الأجنبية:

- Beawes ,William ; The Desert Rout to lndia , v.2 (London , 1929).
- Cowper , H. Swain: Through Turkish Arabia , (London , 1824.
- Eloy ; A. ; Relation de voyagese en orient , v.2 , (Paris,1843) .
- Geere H. valentine ; By Nile and Euphrates , (London , 1904).
- Howel , Thomas; Ajournal of passge from lndia , (London ,).
- Loftus , William Kennett; traveles and Reserches in chaldaea and Susina , (London , 1857)
- Mignan , capt Robert ; travels in Chaldea , (London , 1875).
- Mustawfi ,Hamd - Allah ; Nuzhat - AL- Qulub , (London , 1917).
- porter , sir Robert ker ; Travels in Geargia , Persia , Armenia , Ancient Babylon (London , 1822).

الصحف:

- نجهولت، ليكلاما: صفحات من مذكرات الرحالة الهولندي نجهولت في العراق عام ١٨٦٧، ترجمة مير البصري، جريدة البلد: ٩١٦، ٩ حزيران ١٩٦٧.